المجمع 6 (2012/1433)، 111-140

تبلور قصَّة القيصر يوليانوس في الفكر الإسلامي التَّاريخي

عبد الرحمن طيارة

تلخيص:

يعني هذا البحث بدراسة تطور بداية الكتابة التاريخية عند المسلمين من خلال قراءة مسهبة لقصة القيصر الروماني يوليانوس (حكم بين السنوات 361- 363) في المصادر والحوليات التاريخية الكلاسيكية، وتتبع الدوافع لاهتمام المؤرخين المسلمين بهذه الرواية. وتعتمد هذه الدراسة على تحليل عرض المؤرخين المسلمين لقصة يوليانوس من حيث المصادر (العربية، والفارسية، والسريانية، واليونانية) المستخدمة، والأساليب، والتقنيات السردية المتبعة في دمجها في السرد التاريخي الإسلامي. ومن هنا فإن هذا البحث يلقي الضوء على خلفيات ودوافع المؤرخين المسلمين للاهتمام بقصة يوليانوس والخطاب الاجتماعي الذي أثر على عرضهم التاريخي. بالإضافة إلى ذلك، يعكس هذا المقال المراحل الأولى للنقل المعرفي من المصادر اليونانية-الرومانية إلى الثقافة الإسلامية، وبهذا فهو يوفر زاوية جديدة لتحسين فهمنا لنشأة الكتابة التاريخية عند المسلمين بشكل عام، وعملية تفاعل المؤرخين المسلمين مع ثقافات غير-إسلامية بشكل خاص.

تعكس نشأة كتابة التَّاريخ عند المسلمين حاجات دينيَّة واجتماعيَّة، ونزعات سياسيَّة، شغلت بال العلماء والأدباء المسلمين منذ وفاة الرسول، ﷺ؛ فالخطوات الأولى في الكتابة التاريخيَّة عند المسلمين، تمحورت في الأساس، حول تدوين الرِّوايات الشَّفويَّة لسيرة الرَّسول، ﷺ، ومغازيه، وحفظ ترجمات الصَّحابة والتَّابعين الذين لعبوا دورًا هامًّا في نقل السُّنَّة النَّبويَّة وتعاليمها للأجيال اللَّاحقة. إلى جانب ذٰلك، كان الاهتمام بتدوين تاريخ القبائل العربيَّة وأنسابها قبل الإسلام، قد لعب دورًا بارزًا في هٰذه المرحلة من تطوُّر الكتابة التاريخيَّة. ومن هنا، فإنَّ *السِّيرة*، *والمغازي*، *والطَّبقات*، *والأنساب*، شكَّلت القوالب السَّردية الأولى للكتابة التاريخيَّة عند المسلمين.[1] ومع اتِّساع رقعة الدَّولة الإسلاميَّة، وظهور تحدِّيات اجتماعيَّة وسياسيَّة جديدة داخل المجتمع الإسلامي، بدأت تظهر أشكال جديدة

1- قاسم عبده قاسم، *قراءة التَّاريخ: تطوُّر الفكر والمنهج* (الجيزة: عين للدِّراسات والبحوث الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، 2009)، 111-131;

للكتابة التاريخيَّة عكست هٰذه المستجدات؛ وكان للِّقاء الحضاري بين المسلمين والشُّعوب الأخرى، الأثر البالغ في تطوُّر الكتابة التَّاريخيَّة، بما كان له من أبعاد كبيرة في إغناء المجتمع الإسلامي في ميادين علميَّة وأدبيَّة متنوِّعة، ويذكر في هٰذا المقام ما كان للِّقاء الحضاري بين العرب والفرس، من أثر كبير على تطوُّر الثَّقافة الإسلاميَّة، حين فتح آفاقًا علميَّة جديدة، أغنت الحضارة الإسلاميَّة، وطوَّرتها في مجالات علميَّة عديدة.

تسعى هٰذه الدِّراسة إلى تتبُّع العرض التَّاريخي لقصَّة القيصر الرُّوماني يوليانوس (حكم بين السَّنوات 361-363م)، في المصادر والحوليَّات التَّاريخيَّة الإسلاميَّة الكلاسيكيَّة وتمحيصها، من حيث تحليل التِّقنيَّات السَّرديَّة في هٰذه الرِّوايات، والمصادر المستخدمة فيها. وبكلمات أخرى، يسعى هٰذا البحث لمناقشة الأسئلة التَّالية: لماذا اهتمَّ المؤرِّخون المسلمون بقصَّة يوليانوس، وخاصَّة بما يتعلَّق بارتداده عن النَّصرانيَّة ورجوعه إلى الوثنيَّة؟ وإلى أيِّ مدًى تختلف الأساليب التي اتَّبعها هٰؤلاء المؤرِّخون في عرضهم لهٰذه الرِّواية؟ وما الذي يعكسه هٰذا التَّباين عن تطوُّر السَّرد التَّاريخي؟ وما هي المصادر والقنوات غير الإسلاميَّة التي من خلالها استقى العلماء المسلمون معلوماتهم عن هٰذه القصَّة؟.

وللإجابة على هٰذه الأسئلة، سينهج الباحث نهجًا تحليليًّا مقارنًا، يتناول فيه الرِّوايات الإسلاميَّة التي تعالج قصَّة يوليانوس، في محاولة للكشف عن خلفيَّات المؤرِّخين الثَّقافيَّة ودوافعهم في التعرُّض لهٰذه القصَّة. ولٰكن قبل الشُّروع في هٰذه الدِّراسة، يجدر بنا إلقاء نظرة سريعة على بدايات انعكاس التَّاريخ الرُّوماني-البيزنطي في المصادر الإسلاميَّة.[2]

Chase Robinson, *Islamic Historiography* (Cambridge: Cambridge University Press, 2003), 18-38; Fred Donner, *Narratives of Islamic Origins: The Beginnings of Islamic Historical Writing* (Princeton: Darwin, 1998), 26-35;

عبدالعزيز الدُّوري، *نشأة علم التَّاريخ عند العرب* (العين: مركز زايد للتُّراث والتَّاريخ، 2000)، 15-88.

2- يشمل تعبير "الرُّوم" الذي يتردَّد في المصادر الإسلاميَّة الإمبراطورية الرومانيَّة الغربيَّة، التي كان مقرُّها روما (انهارت في سنة 476م)، وكذٰلك الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة التي كان مقرُّها القسطنطينيَّة. وحتَّى أنَّ

كان للصِّراع السِّياسي والعسكري بين الإمبراطوريَّتين، الإسلاميَّة والرومانيَّة -البيزنطيَّة الذي بدأ منذ القرن السَّابع الميلادي الأثر البالغ في اهتمام المسلمين بالتَّاريخ الرُّوماني-البيزنطي، فعلى الرغم من تمكُّن المسلمين من إلحاق هزائم عسكريَّة عديدة بالبيزنطيِّين، وضمِّ مناطق شاسعة كانت تحت سيطرتهم، إلَّا أنَّ الدَّولة البيزنطيَّة استمرَّت في تشكيل تحدٍّ عسكريٍّ دائم لهم، لذٰلك فإنَّ بداية اهتمام المسلمين بتاريخ الرُّوم-البيزنطيِّين كان مردُّه في الدَّرجة الأولى، دوافع عسكريَّة واستراتيجيَّة، وهو ما يظهر جليًّا في الكتب الجغرافيَّة الإسلاميَّة.[3] وفي هٰذه المرحلة الأوَّليَّة جاء عرض تاريخ هٰذه الأمَّة في المصادر

البيزنطيِّين أطلقوا على أنفسهم اسم "الرُّوم،" وإنما لفظة "البيزنطيُّون" ظهرت لأوَّل مرَّة، بمفهومها الحديث، في القرن السَّابع عشر. لمزيد من المعلومات ينظر في الدِّراسات التَّالية:

N. El-Cheick, *Byzantium Viewed by the Arabs* (Harvard University Press, 2004), 21-71; C. E. Bosworth, "Rūm," *EI*, viii (1995), 602-606; R. Browning, *The Byzantine Empire* (Washington D. C.: Catholic University of American Press, 1992), XIII; A. Abel, "Un *Ḥadīt* sur la Prise de Rome dans la Tradition Eschatologique de l'Islam," *Arabica* (1958), 1-14, 8 no. 2.

3- لمزيد من المعلومات عن انعكاس التَّاريخ اليوناني والرُّوماني- البيزنطي في المصادر الإسلاميَّة الأولى يمكن النَّظر في الدِّراسات التَّالية:

N. El-Cheikh, *Byzantium viewed by the Arabs*,5-54; M. Fierro, "Al-Aṣfar," *Studia Islamica*, 77 (1993), 169-173; A. Shboul, *Al-Mas'ūdī& His World, A Muslim Humanist and his Interest in Non-Muslims,* 113-120; 245-262; T. Khalidi, *Islamic Historiography, The Histories of Mas'ūdī,* 94-98; A. Dietrich "Hellas und Rom in der islamischen Geschichtsschreibung," *in Festschrift für Hermann Heimpel zum 70. Geburtstag am 19. September 1971,* I (Göttingen: Vandenhoeck& Ruprecht, 1971), 81-101; L. Della Vida, "The 'Bronze Age' in Moslem Spain," *Journal of the American Oriental Society* [1943], 63, 183-191; *idem,* "La Traduzione Araba Della Storie di Orosio," *M. G. Galbiati* [Fontes ambrosiani, No. 27, Millano, 1952], III,. 185-203); Ignazio Guidi, "La Discrizione Di Roma Nei Geografi Arabi," *Archivo Della Societa Romana di Storia,* Partia 1 [1878], 173-218.

الإسلاميَّة مختصرًا، ويغلب عليه الطَّابع القصصيُّ غير الواقعي، والمجافي للدِّقَّة في بعض الأحيان. ومع مرور الزَّمن تسنَّى للمؤرِّخين المسلمين الحصول على مصادر جديدة عن التَّاريخ الرُّوماني- البيزنطي، الأمر الذي جعل معرفتهم بهٰذا التَّاريخ أوضحَ وأدقَّ نسبيًّا.

وتقتصر هٰذه الدِّراسة على تتبُّع العرض التَّاريخي لفترة معيَّنة من التَّاريخ الرُّوماني- البيزنطي في المصادر الإسلاميَّة المبكِّرة، هي فترة حكم القيصر يوليانوس، التي تحتلُّ على الرَّغم من قِصَرِها، مكانة هامَّة في التَّاريخ الرُّوماني-البيزنطي، تكشف عنها المصادر اليونانيَّة، والرُّومانيَّة، والسِّريانيَّة، التي واكبت تلك الفترة. ولعلَّ السَّبب الرَّئيسيَّ في هٰذا الاهتمام الشَّديد بقصَّة يوليانوس يعود إلى عاملين أساسيَّيْن: أوَّلهما، المحاولة التي قام بها لإحياء الدِّيانة الوثنيَّة على حساب النَّصرانيَّة في القرن الرَّابع الميلادي، بَيْدَ أنَّه فشل في ذٰلك، بعد أن انتهى هٰذا الصِّراع الدِّيني بانتصار النَّصرانيَّة،[4] أمَّا ثانيهما، فيعود إلى غزوه لبلاد الفرس وإلحاق الهزيمة بهم. ويبدو أنَّ هٰذه هي الخلفيَّة التي تكمُن وراء الاهتمام الكبير الذي حظيت به شخصيَّة القيصر يوليانوس وفترة حكمه لدى الثَّقافات المختلفة، ومن بينها الحضارة الإسلاميَّة التي تشكِّل موضوع هٰذه الدِّراسة.

4- S. Tougher, *Julian the Apostate* (Edinburgh: Edinburgh University Press, 2007), 44-62; A. Murdock, *The Last Paga: Julian the Apostate and the Death of the Ancient World* (Sutton Publishing, 2003), 1-8, 152-201; M. Giebel, *Kaiser Julian Apostata: Die Wiederkehr der alten Götter* (Düsseldorf and Zürich, 2002), 142-201 (especially 193-201); R. Smith, *Julian's Gods: Religion and Philosophy in the Thought and Action of Julian the Apostate* (London and New York, 1995), M. P. Athanassiadi-Fowden, *Julian and Hellenism: an Intellectual Biography* (Oxford, Oxford University Press, 1981), 161-232; 1-22, 179-218;G. W. Bowersock, *Julian the Apostate* (Cambridge: Cambridge University Press, 1978), 79-119; R. Browning, *The Emperor Julian* (Berkeley and Los Angeles, 1976), 145-218.

عند تتبُّعنا لبداية ظهور رواية يوليانوس في المصادر الإسلاميَّة نجدها تُذْكَرُ في الكتابات التَّاريخيَّة العالميَّة الإسلاميَّة التي بدأت تتبلور على ما يبدو في القرن التَّاسع الميلادي.[5] والتي تُشكِّل امتدادًا معلوماتيًّا للرِّوايات الإسلاميَّة الشَّفويَّة، أو المدوَّنه التي سبقتها. ولذٰلك فإن تمحيص العرض التَّاريخي لقصَّة يوليانوس في الرِّوايات الإسلاميَّة يكشف لنا عن رؤية جديدة لفهم نشأة الكتابة التاريخيَّة عند المسلمين. فعند قراءة العرض التَّاريخي لقصَّة يوليانوس في المصادر الإسلاميَّة، تبرز لدينا ستَّة مواضيع محوريَّة:

1) العلاقة بين سابور الثَّاني (ذو الأكتاف) والعرب.
2) ارتداد يوليانوس عن النَّصرانيَّة وإحياؤه للوثنيَّة.
3) غزو يوليانوس لبلاد فارس.
4) مشاركة القبائل العربيَّة في حرب يوليانوس ضدّ الفرس.
5) نهاية يوليانوس وتولِّي يوبيانوس الحكم من بعده.
6) طبيعة ديانة يوليانوس الوثنيَّة.

من خلال تنظيم هٰذه المواضيع على هٰذا النَّحو، يتسنَّى لنا تحليل التِّقنيَّات السَّرديَّة التي تبنَّاها المؤرِّخون المسلمون في تقديمهم لقصَّة يوليانوس، كما يمكننا تتبُّع المصادر التي اعتمد عليها هؤلاء المؤرِّخون. لتسهيل عمليَّة تمحيص هٰذه الرِّوايات، من حيث تدرُّجها التَّاريخي والمصادر المستخدمة فيها، والوقوف على التَّباين بين الأساليب التي اتَّبعها المؤرُّخون المسلمون، فقد صنَّفنا هٰذه الرِّوايات إلى ثلاث مجموعات رئيسيَّة، تشترك روايات كلِّ مجموعة في الأحداث، والتَّسلسل الزَّمني، وأسلوب العرض التَّاريخي، والمصادر

5 - التَّاريخ العالمي هو ضرب أدبيٌّ يهتمُّ بسرد الأحداث التاريخيَّة من بداية الخليقة حتَّى الفترة المعاصرة للمؤرِّخ. لمزيد من المعلومات حول هٰذا الموضوع يمكن النَّظر في الدِّراسات التَّالية:

M. Sprinberg-Hinsen, *Die Zeit vor dem Islam in arabischen Universalgeschichten des 9. Bis 12 Jahrhunderts* (Würzburg: Telos Verlag, Altenberge, 1989), 9-16, 19-67; B. Radtke, *Weltgeschichte und Geschichteschreibung im Mittelalterlichen Islam* (Beirut, Stuttgart: Franz Steiner Verlag, 1992), 1-7; C. Robinson, *Islamic Historiography*, 74-79.

المستخدمة، لتشكِّل كلُّ مجموعة وحدة سرديَّة منفصلة وهيكلًا إخباريًّا يعكس مرحلة معيَّنة من تطوُّر السَّرد التَّاريخي لقصَّة يوليانوس. ومن هنا، سنعرض هٰذه المجموعات في أطر ثلاثة:

1) إطار الرِّوايات العربيَّة (الجاهليَّة)-الفارسيَّة.
2) إطار الرِّوايات الفارسيَّة-السِّريانيَّة.
3) إطار الرِّوايات السِّريانيَّة- اليونانيَّة.

في هٰذا التَّنظيم تتشكَّل لدينا زاوية جديدة لفهم تبلور بدايات الفكر التَّاريخي عند المسلمين، وخاصَّة بما يتعلَّق باهتمامهم بتاريخ الأمم الأخرى بشكل عام، والتَّاريخ الرُّوماني-البيزنطي بشكل خاص؛ وسنعمد الآن إلى تحليل الرِّوايات الإسلاميَّة التي تندرج تحت الإطار الأول.

إطار الرِّوايات العربيَّة (الجاهليَّة) -الفارسيَّة

تتميَّز الرِّوايات التي يمكن تصنيفها تحت هٰذا الإطار، بالتَّركيز على الظُّروف التي أدَّت إلى وصول سابور الثَّاني (حكم بين السَّنوات 379-309م) إلى سدَّة حكم الدَّولة الفارسيَّة السَّاسانيَّة ومعاملته القاسية للقبائل العربيَّة نتيجة لدخولها أراضيه. ونجد هٰذا العرض التَّاريخي في كتابات أبي محمد - عبدالله بن مسلم ابن قتيبة الدِّينَوَري (ت. 889 م)، وأبي حنيفة - أحمد بن داود الدِّينَوَري (ت. 895م)، وأبي العبَّاس - أحمد بن واضح اليعقوبي (ت. 898م)، وأبي جعفر - محمَّد بن جرير الطَّبري (ت. 923م)، وأبي الحسن - علي بن الحسين المسعودي (ت 956م)، وأبي عبد الله - حمزة بن الحسن الأصفهاني (ت. حوالي 970م)، ومطهَّر بن طاهر المقدسي (ت. بعد 970م). وعلى الرَّغم من عدم ذكر يوليانوس في الرِّوايات، التي تندرج تحت هٰذا الإطار، إلا أنَّها تعتبر بمثابة نقطة الانطلاق السَّردي لقصَّة يوليانوس، كما سنرى لاحقًا.

يتَّضح لنا من خلال قراءة هٰذه الرِّوايات أنَّ سابور تولَّى الحكم على الفرس وهو ما زال صبيًّا، فأخذ زعماء الفرس يستخفُّون بكفاءته كملك، ويستهزئون به. وفي الوقت ذاته،

استضعفته الشُّعوب المجاورة، كالتُّرك والرُّوم والعرب، وطمعت في خيرات بلاده. ولٰكن عندما بلغ سابور سنَّ الرُّشد أصبح طاغية، وصار يحكم البلاد بيد من حديد، وانتقم شرَّ انتقام من أشراف الفرس، الذين حاولوا إسقاط حكمه. وما إن استتبَّ الحكم لسابور، حتى أعدَّ العدَّة للانتقام من أعدائه الخارجيين. وكان جلُّ همِّه معاقبة القبائل العربيَّة التي دخلت أراضيه. فقام بمهاجمة هٰذه القبائل وأعمل فيهم القتل وطمَّ آبارهم؛ ولم يقتصر انتقام سابور على هٰذه القبائل، بل قطع البحر وهاجم القبائل العربيَّة الأخرى في البحرين واليمامة وبلاد عبد القيس وبكر وتغلب. وتذكر هٰذه المصادر أنه من شدَّة سخطه على العرب كان يقطع أكتاف المحاربين العرب إمعانًا في معاقبتهم والتَّمثيل بهم. ولذلك أطلق عليه المؤرِّخون المسلمون اللَّقب البغيض "سابور ذو الأكتاف"[6].

على الرَّغم من التَّشابه الكبير بين هٰذه الرِّوايات في تقديم قصَّة سابور، إلَّا أنَّ هناك بعض التَّباين بينها في العرض التَّاريخي من حيث البنية السَّرديَّة، ومدى التأثُّر بالمصادر الفارسيَّة، والجوانب التي أراد المؤرِّخون إبرازها في سردهم للقصَّة. ولتعميق فهمنا للمنهج التَّاريخي لهٰؤلاء المؤرِّخين وإلقاء الضَّوء على خلفيَّاتهم واهتماماتهم في هٰذه المرحلة من

6 - أبو محمد عبدالله بن مسلم ابن قتيبة، *كتاب المعارف*، تحقيق ثروت عكاشة (القاهرة: دار المعارف بمصر، 1960)، 565 ; أبو حنيفة أحمد بن داود الدِّينَوَري، *كتاب الأخبار الطِّوال*، تحقيق عامر عبد المنعم (بغداد: مطبعة المثنَّى، 1960)، 49 ; أبو العبَّاس أحمد بن واضح اليعقوبي، *تأريخ* (بيروت: دار صادر، 1960)، الجزء الأول، 161-162 ; أبوجعفر محمد بن جرير الطبري، *تأريخ الرسل والملوك*، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: دار المعارف بمصر، 1960)، الجزء الثَّاني، 55-57 ; أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، *مروج الذَّهب ومعادن الجوهر*، تحقيق شارل بيلا (بيروت: منشورات الجامعة اللُّبنانية، 1965)، الجزء الأوَّل، 295-296 (الفقرات، 601-602) ; أبو عبد الله حمزة بن الحسن الأصفهاني، *تاريخ سِني ملوك الأرض والأنبياء*، تحقيق مارك غوتفلد (لايبتسغ: بريل، 1844)، 51-52 ; ومطهَّر بن طاهر المقدسي، *كتاب البدء والتَّاريخ* (بيروت: مكتبة خيَّاط، بدون تاريخ)، الجزء الثَّالث، 16 ; أبو علي -أحمد بن يعقوب مسكويه، *تجارب الأمم*، تحقيق ابو القاسم إمامي (طهران: دار سروش، 1987)، الجزء الأول، 72-73 ; أبو منصور -عبدالله بن إسماعيل الثعالبي، *غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم*، تحقيق هرمن زوتنبرغ (امستردام: مطبعة أبا أورينتال، 1979)، 513-520.

التَّقديم لقصَّة يوليانوس، ارتأينا تصنيف الرِّوايات المندرجة تحت الإطار الأوَّل إلى ثلاث فئات ثانويَّة. وبناءً على ذٰلك، يمكن تصنيف روايات ابن قتيبة، اليعقوبي، الطَّبري، والمقدسي تحت الفئة الأولى، وبشكِّل وصف الدِّينَوَري، لاستثنائيَّته، كما سنرى لاحقًا، فئة منفصلة. أما روايتا المسعودي والأصفهاني فيمكن إدراجهما في نطاق الفئة الثَّالثة.

عند مقارنة العرض التَّاريخي لقصَّة سابور في روايات ابن قتيبة، اليعقوبي، الطَّبري والمقدسي نجد، على الرَّغم من التَّشابه الكبير بينها، بعض الاختلافات الطَّفيفة. فاليعقوبي يوفِّر لنا وصفًا مختصرًا لا يذكر فيه مثلًا، السَّبب لكراهية سابور للعرب ومعاداته لهم، حتى أنه لا يذكر أسماء القبائل العربيَّة التي كان لها ضلع في هٰذا الصِّراع. ولعلَّ السَّبب في هٰذا العرض العابر يعود إلى مَيْلِ اليعقوبي إلى سرد تاريخ ملوك الفرس بشكل مختصر، وتحفُّظه من بعض المصادر الفارسيَّة لأنَّها تحمل في رأيه طابعًا خُرافيًّا.[7] أما روايات ابن قتيبة، الطَّبري والمقدسي فتتَّصف بأنَّها مسهبة نسبيًّا وتبرز فيها وجهة نظر أهل الحديث الدِّينيَّة.[8] أمَّا رواية الطبري، فهي أكثرها تمثيلًا لهٰذا التَّوجُّه في الكتابة التَّاريخيَّة. إذ نجد الكاتب يعتمد فكرة الفساد بمفهومها القرآني[9] () محورًا سرديًّا أساسيًّا تدور حوله أحداث

7 - اليعقوبي، *تأريخ*، الجزء الأوَّل، 158.

8 - عن الخلفيَّات الثَّقافيَّة المختلفة، التي أثرت على بداية الفكر التَّاريخي الإسلامي والدَّور الذي لعبه رجال الدِّين والأدباء في ذٰلك، ينظر في الدِّراسات التَّالية:

T. Khalidi, *Arabic Historical Thought in the Classical Period* (Cambridge: Cambridge University Press, 1994), 83-104; M. Carter, "The Kātib in Fact and Fiction," *Abr Nahrain*, X, (1971), 42-55; S. D. Goitein, *Studies in Islamic History and Institutions* (Leiden: Brill, 1966), 169, 186-87; G. von Grunebaum, *Medieval Islam, A Study in Cultural Orientation* (Chicago: Chicago University Press, 1953), 250-257; Ch. Pellat, *Le Milieu Basrien et la Formation de Ğahiz* (Paris: Librairie d'Amérique et d'Orient, 1953), 65-66.

9 - المفهوم القرآني للفساد يصوِّر السُّلوك الفاسق لبعض الشُّعوب أو الحكَّام؛ وهٰذا يستدعي العقاب الإلٰهيَّ بشكل مباشر، أو عن طريق تسليط قوًى ظالمة عليهم. لمزيد من المعلومات حول هٰذا الموضوع ينظر في: سورة البقرة: 205; سورة المائدة: 32-33; سورة الفجر: 12 . وأيضًا الطَّبري، *جامع البيان عن تأويل*

القصَّة. فمثلًا، يستخدم الطَّبري عبارة "وأكثروا فيها الفساد"[10] لوصف تصرُّف القبائل العربيَّة الجائر حين دخلت أراضي الفرس، وسابور عندئذٍ، كان ملكًا صغيرًا، مما أثار غضب الله عليهم. ولتحقيق العدل الإلٰهي بمعاقبة هٰذه القبائل، سلَّط الله سابور عليهم.

أمَّا رواية الدِّينَوَري فقد أوردناها في مجموعة منفردة، لأنَّها تمثِّل في بنيتها السَّرديَّة، ومصادرها، والمعلومات التي توفِّرها لنا، نقطة تحوُّل في العرض التَّاريخي لقصَّة يوليانوس. وأبرز الاختلافات بين الدِّينَوَري والمؤرِّخين الآخرين يظهر بوضوح عند تتبُّعنا لطريقة وصفه للعلاقة العدوانيَّة بين سابور والعرب. فالدِّينَوَري يضع هٰذه الرِّواية في قالب سرديٍّ جديد، حيث يربط المواجهة بين العرب وسابور بالصِّراع الدَّائر بين الفرس والبيزنطيِّين. فيروي لنا أنَّه عندما تولَّى سابور حكم الفرس صبيًّا، استغلَّ بعض الغساسنة[11] ذٰلك الوضع ودخلوا منطقة السَّواد، التي كانت تعتبر من أخصب الأراضي الزِّراعيَّة عند الفرس، واستوطنوا فيها. وعندما أصبح سابور شابًّا قام بمهاجمة الغساسنة وأعمل فيهم السيف، وحتى أنه قتل زعيمهم، الضَّيزن. ويضيف الدِّينَوَري أنَّه بسبب بطش سابور بالغساسنة وقطعه أكتاف المحاربين سمِّي بـ "سابور ذي الأكتاف." ويروي الدِّينَوَري أنَّ انتقام سابور من الغساسنة وقتله زعيمهم أدَّيا إلى تدخُّل حلفائهم البيزنطيِّين لحمايتهم.[12] ومن هنا يحاول الدِّينَوَري التَّأكيد على أنَّ هٰذا الصِّراع لم يكن مواجهة بين العرب والفرس، كما يذكر المؤرِّخون الآخرون، بل كان جانبًا من المواجهة العسكريَّة الدَّائرة بين فارس والرُّوم-البيزنطيِّين. وهناك اختلاف أساسيٌّ آخر بين رواية الدِّينَوَري والعرض التَّاريخي لقصَّة

آي القرآن (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، 1954)، الجزء السَّادس، 205-219; الجزء الثَّلاثون، 180-182.

10- الطَّبري، *تأريخ الرُّسل*، الجزء الثَّاني، 55.

11- الغساسنة قبائل عربيَّة سكنت في نطاق الدَّولة البيزنطيَّة، وكانوا حلفاء وعمَّالًا عند البيزنطيِّين. وقد لعب الغساسنة دورًا هامًّا في الصِّراع بين الفرس والبيزنطيِّين، خاصَّة خلال القرنين الخامس والسَّادس الميلاديَّيْن.

12 - الدِّينَوَري، *الأخبار*، 48-49.

يوليانوس في الرِّوايات الإسلاميَّة المذكورة آنفًا، هو أنَّ اسم يوليانوس يظهر لأوَّل مرَّة، حيث يصفه الدِّينَوَري كقائد للحملة العسكريَّة الرومانيَّة-البيزنطيَّة ضدّ الفرس. وتجدر الإشارة هنا، إلى أن قصَّة سابور والضَّيزن ترد في تاريخ الطَّبري، بيد أنَّه يَنْسِبُ زمن حدوثها إلى عهد سابور الأوَّل (حكم بين السَّنوات 242-271) وليس ضمن قصَّة سابور الثَّاني (حكم بين السَّنوات 309 - 379م)، كما فعل الدِّينَوَري. وممَّا يثير الاهتمام أيضًا أنَّه ليس هناك علاقة بين الضَّيزن والغساسنة في رواية الطَّبري.[13] ومن الأسئلة التي تطرح نفسها هنا، لماذا جاءت رواية الدِّينَوَري مختلفة عن بقيّة الرِّوايات الأخرى لقصَّة سابور والعرب؟ وإلى أيِّ مدًى يكشف لنا هٰذا العرض التَّاريخي المميَّز خلفيَّة الدِّينَوَري في تأليفه *الأخبار الطِّوال*؟. لمعالجة هٰذين السُّؤالين، علينا أوَّلًا تتبُّع طبيعة المصادر المستخدمة في رواية الدِّينَوَري.

يعتبر الدِّينَوَري، الفارسي الأصل، من أوائل المؤرِّخين المسلمين الذين اهتمُّوا بتاريخ الفرس ودمجوا المصادر الفارسيَّة في سردهم التَّاريخي.[14] وقد ساهم الدِّينَوَري كثيرًا في حفظ مصادر فارسيَّة أوَّليَّة في الأخبار، لولاه لمحاها الزَّمن.[15] وبما أنَّ مصادر قصَّة سابور هي في الأساس فارسيَّة، لا بدَّ لنا هنا، من بيان مدى تأثير المصادر الفارسيَّة على العرض التَّاريخي عند الدِّينَوَري، عن طريق مقارنة روايته بملحمة الفردوسي (ت. 1029)- *الشَّاهنامة*. هٰذا العمل الأدبي، الذي يروي التَّاريخ الفارسيَّ الملكيَّ منذ الخليقة وحتى مجيء الإسلام، يهدف في الأساس إلى إبراز الإنجازات الحضاريَّة للفرس وإظهار تفوُّقهم على

13- الطَّبري، *تأريخ*، الجزء الثَّاني، 46-50.

14- القفطي، *إنباه الرُّواة على أنباه النُّحاء*، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: مطبعة دار الكتب والوثائق القوميَّة، 2005)، الجزء الأوَّل، 41- 44 ; الأنباري، *نزهة الألبَّاء في طبقات الأدباء*، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: دار نهضة مصر للطِّباعة والنَّشر، 1967), 240.

15 - يذكر لنا نولدكه، مثلًا، أن الدِّينَوَري كان أوَّل من اعتمد على الرِّواية الفارسيَّة الأصليَّة لقصَّة بهرام تشوبين. *Geschichte des Perser und Araber zur Zeit de Sasaniden* (Leiden: Brill, 1979), 474-78.

العرب.[16] ومن هنا فـ*الشَّاهنامة* تندرج في نطاق حركة التَّنافس الاثني- الحضاري بين شعوب الإمبراطوريَّة الإسلاميَّة، وخاصَّة بين العرب والفرس. وأطلق على هٰذه الظَّاهرة حركة "الشُّعوبيَّة"، التي أخذت شكل التَّنافس الأدبي- العلمي منذ القرن الثَّامن الميلادي. وكان لٰذه الحركة أثر بالغ على الحياة الأدبيَّة الإسلاميَّة وكتابة التَّاريخ، وخاصَّة بما يتعلَّق باهتمام المسلمين بتاريخ الشُّعوب الأخرى وإنجازاتها الحضاريَّة.[17] .

عند مقارنة رواية الدِّينَوَري المذكورة أعلاه للمواجهة العسكريَّة بين سابور ويوليانوس مع وصف *الشَّاهنامة* للمشهد نفسه، نجد الكثير من أوجه التَّشابه؛ بل إنه في كثير من الحالات، يمكننا القول إنَّ الاختلاف يقتصر على أسماء الشَّخصيَّات المذكورة في القصَّة. فمثلًا، يروي الفردوسي أنَّ اسم زعيم الغساسنة هو طائر، بدلًا من الضَّيزن كما ورد ذكره عند الدِّينَوَري. ويضيف الفردوسي أنَّ طائرًا خطف عمة لسابور وولدت له بنتًا اسمها مليكة. وعندما هاجم سابور طائرًا، فرَّ الأخير إلى قلعة في اليمن. ويخبرنا الفردوسي أيضًا، أنه عندما حاصر سابور القلعة، قامت مليكة بالتَّعاون سرًّا مع سابور وفتحت له بوَّابة القلعة بعد وقوعها في حبِّه.[18] وهٰذه القصَّة ترد في رواية الدِّينَوَري، إلَّا أنَّه يتَّخذ العراق

16- K. Yamamoto, *The Oral Background of Persian Epics: Storytelling and Poetry (*Leiden and Boston: E. J. Brill, 2003), 3-15,

17 - H. T. Norris, "Shu'ūbiyyah in Arabic Literature," *The Cambridge History of Arabic Literature,' Abbasid Belles-Lettres*, ed., Julia Ashtiany et el (Cambridge, New York, 1990), 31-47 H.A.R. Gibb, "The Social Significance of the Shuubiyya," in *Studies on the Civilization of Islam*, eds. Stanford J. Shaw and William R. Polk (Princeton, 1982), 62-73;. D. Agius, "The Shu'ūbiyya Movement and its Literary Manifestation," *Islamic Quarterly*, 24 (1980), 76-88; R. Mottahedeh, "The Shu'ūbiyyah Controversy and the Social History of Early Islamic Iran," *IJMES*, 7 (1976), 161-182; I. Goldziher, *Muslim Studies*, trans. by S. M. Stern and C. R. Barber (London, 1967-71), 176-198.

18- Firdousi, Abou'lKasim. *Le Livre de Rois*, ed., and trans. M. Jules Mohl (Paris: Jean Maisonneuve, 1976), Vol., 5, 426-435 (book 29, verses 40-136).

مكانًا لحدوثها. لا بدَّ لنا من الإشارة مرَّة أخرى إلى أنَّ قصَّة الضَّيزن وابنته ترد في تاريخ الطَّبري، إلَّا أنَّه يقدِّم القصَّة في سياق عرضه لعهد سابور بن أردشير (حكم بين السَّنوات 242-271). كما أنَّه يصف الضَّيزن على أنَّه شيخ قضاعة وليس زعيم الغساسنة، ويذكر أيضًا أنَّ اسم ابنة الضَّيزن هو النَّضيرة وليس مليكة.[19] وهٰذا التَّنظيم السَّردي الذي يتبنَّاه الطَّبري يدلُّ على تأثُّره الكبير بالمصادر الفارسيَّة، إلَّا أنَّ استخدامه لها يختلف، من حيث السِّياق والأهداف والبنية السَّرديَّة، عن كيفيَّة دمجها في رواية الدِّينَوَري.

ومن هنا يمكن القول إنَّ رواية الدِّينَوَري تعكس بشكل كبير المصادر الفارسيَّة، التي قام بدمجها في سرده بشكل معيَّن، بحيث تُقَدِّمُ معاداة سابور الشَّديدة للعرب على أنها تقتصر على الغساسنة كجزء من الصِّراع الدَّائم بين الفرس والرُّوم-البيزنطيِّين. واختيار الدِّينَوَري لهٰذه المصادر وطريقة استعمالها في روايته يلقيان بعض الضَّوء على الغاية من كتابته التَّاريخيَّة. فالدِّينَوَري يعالج هنا الخطاب الشُّعوبي بشكل مغاير، بحيث يحاول جاهدًا أن يخفِّف من حدَّة التَّنافس بين العرب والفرس. فبدلًا من أن يظهر على أنَّه شُعوبيٌّ أو مناهضٌ للشُّعوبيَّة، يسلك الدِّينَوَري طريقًا وَسَطًا يحاول فيها تخفيف التَّوتُّر بين العرب والفرس. فعلى العكس من المؤرِّخين المسلمين الآخرين، يصوِّر لنا الدِّينَوَري العلاقة العُدوانيَّة بين سابور والعرب على أنَّها نزاع بينه وبين الغساسنة، أي ضمن الصِّراع الفارسي-البيزنطي. وهٰذا المنهج في معالجة الخطاب الشُّعوبي نجده جليًّا في كتابات تاريخيَّة تأثَّرت بالمصادر الفارسيَّة. وخير مثال على ذٰلك كتاب *نهاية الأرب في أخبار الفرس والعرب*، الذي تمَّت كتابته في بداية القرن التَّاسع الميلادي، بيد أن مؤلِّف هٰذا الكتاب ما زال مجهول الهويَّة.[20] .

19 - الطَّبري، *تأريخ*، الجزء الثَّاني، 48-50.

20- M. Grignaschi, "*La Nihāyatu-L-Arab fi Ahbari-l-furs wa-l-'Arab*", *Bulletin d'etudes Orientales, Institut Francais de Damas,* 22 (1969), 15-67; *idem*, "*La Nihāyatu-L-Arab fi Ahbāri-l-furs wa-l-'Arab* et les *Siyaru mulūki-l-'aġam* du Ps. Ibn al-Muqaffa'", *Bulletin d'etudes Orientales, Institut Francais de Damas,* 26 (1973),

أمَّا روايتا المسعودي وحمزة الأصفهاني، فإنَّ إدراجهما في مجموعة مستقلَّة يعود إلى التَّنظيم المختلف للإطار السَّردي الذي انتهجاه. فعلى عكس بقية المؤرِّخين، يقدِّم المسعودي والأصفهاني قصَّة سابور والعرب في نطاق عرضهما لتاريخ ملوك الفرس، بينما نجد معالجتهما للصِّدام العسكريِّ بين سابور ويوليانوس تندرج ضمن وصفهما للتَّاريخ الرُّوماني-البيزنطي، وليس في نطاق التَّاريخ الفارسي. ومع ذٰلك، هناك بعض الاختلافات بين روايتي المسعودي والأصفهاني. فرواية الأصفهاني الفارسي الأصل، والذي ينعته بعض الأدباء المسلمين بنزعته الشُّعوبية المعادية للعرب،[21] تزوِّدنا بوصف مختصر للعلاقة بين سابور والعرب، يلاحظ فيه الاعتماد الكبير على المصادر الفارسيَّة. فنجده على سبيل المثال، عندما يتطرق إلى نعت سابور بـ "ذي الأكتاف"، يستخدم عبارة "هوبا سمبا" التي تعني في الفارسيَّة "ذا الأكتاف". وهٰذه العبارة تشير، على ما يبدو، إلى محاولته عرض التَّاريخ الفارسي معتمدًا على مصادره الأولى.[22] كذٰلك فإن الأصفهاني لا يحدِّد، على ما يبدو بهدف التَّقليل من مكانة العرب، أسماء القبائل العربيَّة المتورِّطة في المواجهة مع سابور، بل يتطرَّق إليها بشكل جماعيٍّ باستخدامه كلمة "العرب".[23]

أمَّا رواية المسعودي فجاءت مسهبة، وتكمن أهميَّتها بشكل خاصّ في دمج المصادر العربيَّة الجاهليَّة فيها. فيروي المسعودي أنَّ قبيلة إياد دخلت العراق وسيطرت على مناطق واسعة منه، ممَّا أثار حفيظة سابور الذي قام بحملة عسكريَّة لطردهم ومعاقبتهم. ويذكر

168-169; E. G. Brown, "Some Account of the Arabic Work entitled 'Nihāyatu' l-Irab fi akhbāri' l-Furs wa' l-'Arab," *JRAS* (1900), 195-259.

- F. Rosenthal, "Ḥamza al-Iṣfahānī," *Encyclopedia of Islam*, III, (1971), 156.21

22 - يشرح لنا الأصفهاني طريقته في كتابة تاريخ الفرس المبني على مصادره الأولى سعيًا للوصول إلى معلومات صحيحة. *تأريخ*، 17، 23.

23 - نفس المصدر، 51-52.

المسعودي شاعرًا لقبيلة إياد اسمه لقيط،[24] الذي حذَّر قومه من عدم دخول العراق خوفًا من غضب سابور، ولٰكنه لم يفلح في إقناعهم. ويضيف المسعودي أنَّ سابور وصل إلى البحرين وحارب قبيلة بني تميم. ويمضي المسعودي في سرده ليصف حوارًا بين سابور وزعيم قبيلة تميم، عمرو بن تميم بن مُرّ، الذي يستفسر من سابور عن أسباب معاداته لقبيلته. ويجيب سابور على هٰذا السُّؤال مشيرًا إلى سببين: أوَّلهما، أنَّ العرب اعتدوا على أراضيه وأفسدوها، وثانيهما، أنه مذكور في الكتب الفارسيَّة القديمة أنَّ نهاية إمبراطوريَّة الفرس ستكون على يد العرب. وينهي المسعودي هٰذا الفصل من روايته بنجاح عمرو في إقناع سابور بالعدول عن فكرته وإنهاء حملته ضد العرب.[25] وقصة اللِّقاء بين سابور وبني تميم يرد ذكرها عند المقدسي والثَّعالبي، إلَّا أنَّهما يشيران بدلًا من عمرو بن تميم بن مُرّ إلى امرأة عجوز، كما أن اسم قبيلتها غير وارد في هاتين الرِّوايتين.[26]

إطار الرِّوايات الفارسيَّة-السِّريانيَّة

في تتبُّعه للمصادر التي اعتمد عليها المؤرِّخون المسلمون في عرضهم لقصَّة يوليانوس، يشير الباحث الألماني، تيودور نولدكه، إلى عدَّة مصادر، إلَّا أنَّه يذكر باهتمام كبير مصدرًا سريانيًّا يعرف باسم *رومانسة يوليانوس*، ويشدِّد على الدَّور الخطير الذي لعبه هٰذا المصدر في عرض رواية يوليانوس في المصادر الإسلاميَّة الكلاسيكيَّة. هٰذا المصدر، الذي كُتب على ما يبدو في القرن السَّادس الميلادي، ذو نزعة دينيَّة واضحة تخدم في الدَّرجة الأولى وجهة النظر الكنسيَّة الدينيَّة الرَّامية إلى إبراز انتصار النَّصرانيَّة على الوثنيَّة.[27] أمَّا بالنِّسبة

24 - على ما يبدو أنَّ لقيط الإيادي عاش في النصف الأوَّل من القرن السَّادس الميلادي وكان مستشارًا لبعض ملوك الفرس السَّاسانيِّين لشؤون القبائل العربيَّة. لمزيد من المعلومات انظروا: C. Pella, "Laḳīṭ al-Iyādī," *Encyclopaedia of Islam*, V, (1978), 639-640.

25 - المسعودي، *مروج*، الجزء الأوَّل، 296-297 (الفقرات 602-601).

26 - المقدسي، *البدء*، الجزء الثَّالث، 162; الثَّعالبي، *غرر*، 520-521.

27- Th. Nöldeke, " Über den Syrischen Roman von Kaiser Julian," *Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft*, 28 (1874), 263-92.The Syriac "Romance of

لكيفيَّة انتقال مضمون *الرُّومانسة* إلى المصادر الإسلاميَّة، فهناك من يعتقد بوجود ترجمة عربيَّة لٰذا المصدر، تم إنجازها خلال القرن التَّاسع الميلادي.[28] بيد أنَّه لا يمكن التَّأكُّد من صحَّة هٰذه المقولة، لا سيَّما وأنَّ هناك احتمالًا بأنَّ هٰذا المصدر السِّرياني انتقل إلى المسلمين عن طريق المصادر الفارسيَّة. وسنأتي في السُّطور القادمة على تتبُّع مدى تأثُّر العرض التَّاريخي لقصَّة يوليانوس في الرِّوايات الإسلاميَّة *بالرُّومانسة*، محاولين إلقاء بعض الضَّوء على تطوُّر الكتابة التَّاريخية عند المسلمين من زاوية أخرى، وخاصَّة بدايات تأثُّرهم بمصادر جديدة عند تقديمهم للتَّاريخ الرُّوماني-البيزنطي.

يجد القارئ للرِّوايات الإسلاميَّة، التي يمكن إدراجها ضمن إطار المصادر الفارسيَّة-السِّريانيَّة، ثلاثة محاور سرديَّة أساسيَّة: وقوع سابور في أسر الرُّوم-البيزنطيِّين، وغزو يوليانوس لبلاد فارس وموته الغامض، وتَولِّي يوبيانوس الحكم على الرُّوم ومصالحته لسابور. ومعظم المؤرِّخين المسلمين يموضعون هٰذه المرحلة من قصَّة يوليانوس في نطاق عرضهم لتاريخ ملوك الفرس، وخاصَّة من خلال التَّطرق لفترة حكم سابور الثَّاني.[29] من

Julian" was published by Johann G. E. Hoffmann, *Julianus der Abtrünnige*: *Syrischen Erzählungen* (Leiden: Brill, 1880). للتَّرجمة الإنجليزية ينظر في *Julian the Apostate: Now Translated for the First Time from the Syriac Original (the only known Ms. In the British Museum, ed. by Hoffmann of Kiel)*, trans. by Hermann Gollancz (Oxford: Oxford University Press, 1928).

[27] Th. Nöldeke, "Über den Syrischen Roman von Kaiser Julian," 292; Idem, *Geschichte der Perser und Araber Zeit*, 59-6;

28- U. Ben-Horin, "An Unknown Old Arabic Translation of the Syriac Romance of Julian the Apostate," *Studies in Islamic History and Civilization, Scripta Hierosolymitana* IX (1961), 1-10.

29 - يرى نولدكه أنَّ المعلومات عن وقوع الملك الفارسي في الأسر الرُّوماني- البيزنطي تعود إلى مصدر فارسي، ولٰكنه يعتقد أنَّ هذه الحادثة وقعت خلال حكم سابور الأوَّل وليس سابور الثَّاني، كما يروي الكثير من المؤرِّخين المسلمين. Th. Nöldeke, *Geschichte der Perser*, 64, no. 2

هنا يمكن القول إنَّ العرض التَّاريخي لقصَّة يوليانوس عند معظم هٰؤلاء المؤرِّخين لا يزال في نطاق سردهم للتَّاريخ الفارسي. وهٰذا التَّنظيم السَّردي للرِّوايات يشير إلى إمكانيَّة تعرُّف معظم المؤرِّخين المسلمين على *رومانسة يوليانوس* عن طريق المصادر الفارسيَّة، وليس بشكل مباشر من المصدر السِّرياني.

من قراءة الرِّوايات الإسلاميَّة نعلم أنَّ سابور تسلَّل متخفِّيًا ليلًا إلى داخل معسكر الرُّوم ليجمع معلومات عن عددهم وعُدَّتهم، وكان موفَّقًا في مهمَّته حتَّى أنَّه نجح بالوصول إلى خيمة قيصرهم.[30] ولٰكن اسم قيصر الرُّوم يبقى مجهولًا في هٰذه المرحلة من القصَّة؛ إلَّا أنَّ أحد الأشخاص من حاشية القيصر استطاع أن يعيِّن هُويَّة سابور، الذي يقع في أسر الرُّوم. ونعلم من هٰذه الرِّوايات أيضًا أنَّ القيصر الرُّوماني أراد الإمعان في إذلال سابور، فأمر أن يوضع في داخل جلد ثور جاف. وفي الوقت ذاته، استغلَّ قيصر الرُّوم فرصة وقوع سابور في الأسر ليعدَّ جيشًا عظيمًا لغزو بلاد الفرس. وتروي المصادر الإسلاميَّة أنَّ سابور استطاع التَّخلُّص من أسره بمساعدة بعض الأسرى، ليعود إلى بلاده وليعدَّ جيشًا لمحاربة الرُّوم. وكانت هٰذه المواجهة العسكريَّة بين الطَّرفين لصالح الفرس، وحتى أن قيصر الرُّوم يقع في أسر سابور.[31] من ناحية التَّنظيم السَّردي للقصَّة تتَّخذ الرِّوايات المندرجة تحت هٰذه المرحلة من العرض التَّاريخي، التَّاريخ الفارسي كإطار زمني وموضوعي، بينما يبقى فيها

30 - تجدر الإشارة إلى أنَّ الأصفهاني يذكر أنَّ سابور دخل إلى كنيسة وليس خيمة قيصر الرُّوم. انظر، *تأريخ*، 51.

31 - ابن قتيبة، *المعارف*، 556-559; المسعودي، *مروج*، الجزء الأوَّل، 298-299 (الفقرات 605-606); الأصفهاني، *تأريخ*، 51; المقدسي، *البدء*، الجزء الثَّالث، 161-162; الثَّعالبي، *غرر*، 521-533. تجدر الإشارة إلى أنَّ قصَّة وقوع سابور في أسر الرُّوم ترد في *الشَّاهنامة*، ولٰكن هناك بعض الاختلافات البسيطة. فمثلًا، يخبرنا الفردوسي أنَّ امرأة من أصل فارسي ساعدت سابور في التَّخلُّص من أسره. وهٰذا العرض يظهر لنا اعتماده على مصادر فارسيَّة أخرى، ولٰكن لا يمكننا استبعاد محاولته توفير عرض آخر للقصَّة بحيث يخدم نزعته القوميَّة الفارسيَّة بصورة أحسن. انظر الفردوسي، *الشَّاهنامة*، الجزء الخامس, 429-435 (الفصل 29, الأبيات 330-494).

التَّاريخ الرُّوماني-البيزنطي هامشيًّا. وحتى أنَّ بعض المؤرِّخين، مثل ابن قتيبة، يُنهون عرضهم لقصَّة سابور بتخلُّصه من أسر الرُّوم ولا يدلون بمعلومات إضافيَّة عن الرُّوم أو يوليانوس.

عند قراءة روايات اليعقوبي، الدِّينَوَري والطَّبري يمكننا إيجاد معلومات جديدة عن قصَّة القيصر يوليانوس، وكذٰلك نلاحظ أنَّ تأثير المصدر السِّرياني، *الرومانسة*، بارز في هٰذه المرحلة من العرض التَّاريخي للقصَّة. بالإضافة إلى ذٰلك، نرى أنَّ هناك تجديدًا فيما يتعلَّق بالبنية السَّرديَّة للقصَّة؛ فعلى عكس المؤرِّخين الآخرين، يُقدِّم اليعقوبي، الدِّينَوَري، والطَّبري رواياتهم ضمن إطار تقديمهم لتاريخ ملوك الرُّوم-البيزنطيِّين وليس من خلال عرضهم للتَّاريخ الفارسي. بالإضافة إلى ذٰلك، هناك مواضيع جديدة تمَّت معالجتها في هٰذه الرِّوايات. ويمكن الإشارة إلى أربعة مواضيع محوريَّة تبرز في روايات هٰؤلاء المؤرِّخين: أوَّلها، وصول يوليانوس إلى الحكم، وثانيها، ارتداده عن النَّصرانيَّة والرُّجوع إلى الوثنيَّة، وثالثها، غزوه لبلاد الفرس، ورابعها، تولِّي يوبيانوس الحكم على الرُّوم من بعد موته. سنأتي على تحليل رواية اليعقوبي لكونها مختصرة، كما تظهر بوضوح مرحلة الانتقال في عرض قصَّة يوليانوس في الرِّوايات الإسلاميَّة من نطاق الهيكل الفارسي إلى الهيكل الرُّوماني-البيزنطي. وبما أنَّ تأثير المصدر السِّرياني –*رومانسة يوليانوس* يظهر بوضوح على الرِّوايات الإسلاميَّة في هٰذه المرحلة من تقديم قصَّة يوليانوس، لا بدَّ لنا من إعطاء لمحة حول فحواه قبل الشُّروع في تحليل الرِّوايات الإسلاميَّة.

تدور أحداث *الرُّومانسة* حول أستيبيوس (ت. 339)، أسقف قيسارية،[32] الذي يتنبَّأ بموت يوليانوس عقابًا له على تركه النَّصرانيَّة، وهدمه الكنائس، واتِّباعه الوثنيَّة دينًا. وفي *الرُّومانسة* يلعب يوبيانوس دورًا خطيرًا حين تعرض شخصيَّته على أنَّه نصرانيٌّ تقيٌّ، إلَّا أنَّه يخفي نصرانيَّته خوفًا من بطش يوليانوس وعقابه. ومن خلال المصدر السِّرياني نعلم أيضًا أن يوبيانوس عارض فكرة غزو يوليانوس لبلاد فارس، وحتَّى تشاء له الظروف أن يصبح صديقًا لسابور بعد أن ساعده في تفادي الوقوع في أسر يوليانوس. بعد ذٰلك، تصل حبكة

32 - يلعب أسيبيوس دورًا هامًّا في تمثيل وجهة نظر الكنيسة باعتباره المؤسِّس للتَّاريخ الكنسي.

الرُّومانسة إلى ذِروتها بموت يوليانوس في بلاد فارس بعد إصابته بسهم مجهول المصدر وقتله كعقاب إلٰهي. وتنتهي رواية *الرُّومانسة* بتتويج الرُّوم يوبيانوس ملكًا عليهم، وبدوره يصالح سابور ويعود إلى بلاده.[33] ومن هنا فإنَّ هٰذا المصدر السِّريانيَّ يمثِّل وجهة النظر التاريخية للكنيسة، التي تركِّز على انتصار النَّصرانيَّة وتأييد المشيئة الإلٰهية لها بمعاقبة المعتدين عليها.

يذكر اليعقوبي قصَّة يوليانوس في موضعين من *التَّاريخ*: عند معالجته تاريخ القياصرة الرُّوم المتنصِّرين، وعند سرده لتاريخ ملوك الفرس السَّاسانيِّين. في الموضع الأوَّل يعلمنا اليعقوبي أنَّ يوليانوس مَلَكَ الرُّوم سنة واحدة بعد حكم القيصر قسطنطين العظيم (حكم بين السَّنوات 311-337 م). ولٰكنَّ اليعقوبي لا يدلي بمعلومات إضافيَّة حول حياته أو ميوله الدِّينيَّة.[34] أمَّا في نطاق سرده لتاريخ الفرس السَّاسانيِّين، فيروي اليعقوبي أنَّه عند قيام يوليانوس بغزو بلاد الفرس انضمَّ إلى عسكره عدد كبير من القبائل العربيَّة.[35] ويضيف اليعقوبي أنَّ هٰذه الحملة العسكريَّة تكلَّلت بالنَّجاح، خاصَّة وأنَّ يوليانوس تمكَّن من دخول ونهب المدائن (حاضرة بلاد الفرس)؛ ولٰكن في غمرة هٰذا الانتصار الباهر يُقتل يوليانوس بسهم لا يعرف مصدره، ثم يُمَلِّكُ الرُّوم يوبيانوس عليهم ويقوم بمصالحة سابور ويعود إلى بلاده.[36].

33- Th. Nöldeke "Über den Syrischen Roman von Kaisar Julian," 266-281.

34 - اليعقوبي، *تأريخ*، الجزء الأوَّل، 154.

35 - تجدر الإشارة إلى أنَّ المصادر البيزنطيَّة، مثل أميانوس ماركيلينوس (ت. بعد سنة 392) وليبانيوس (ت. 393), تذكر مشاركة العرب في حرب يوليانوس ضدَّ الفرس. لمزيد من المعلومات عن هٰذا الموضوع ينظر في:

Irfan Shahi, *Byzantium and the Arabs in the Fourth Century* (Washington D.C.: Dumbarton Oaks, 1984) 238-283.

36 - اليعقوبي، *تأريخ*، الجزء الأوَّل، 161-162.

لا شكَّ أنَّ تأثير المصدر السِّرياني المسمَّى *رومانسة يوليانوس* بَيِّنٌ هنا على رواية اليعقوبي حتَّى وإن جاءت مختصرة.[37] بيد أنَّنا لا نستطيع التَّأكيد على معرفة اليعقوبي لٰذا المصدر بشكل مباشر. وبما أنَّ اليعقوبي يموضع قصَّة يوليانوس في إطار عرضه للتَّاريخ الفارسي، يمكن ترجيح إمكانيَّة انتقال المصدر إلى اليعقوبي عن طريق المصادر الفارسيَّة.

عند تتبُّع عرض قصَّة يوليانوس عند الدِّينَوَري والطَّبري، اللَّذين يعالجان القصَّة من خلال عرضهما لتاريخ ملوك الفرس السَّاسانيِّين، نجد معلومات إضافيَّة لا نجدها في رواية اليعقوبي؛ ففي البداية يصف الدِّينَوَري والطَّبري، مثلما يحدث في *الرُّومانسة*[38] الميول الدِّينيَّة الوثنيَّة ليوليانوس. فنعلم من روايتهما أنه قبل وصوله إلى الحكم أخفى يوليانوس ميوله الوثنيَّة وتظاهر على أنَّه مؤمن بالنَّصرانيَّة. ولٰكنه عندما أصبح ملكًا على الرُّوم ارتدَّ عن النَّصرانيَّة وقام بإحياء الوثنيَّة علنًا.[39] ويضيف الدِّينَوَري والطَّبري، مثلما تسرد *الرُّومانسة*،[40] أنَّ يوليانوس طارد النَّصارى وقتل الكثيرين منهم وهدم عددًا كبيرًا من الكنائس. بعد ذٰلك، جهَّز جيشًا عظيمًا تحت قيادة يوبيانوس وقام بغزو بلاد الفرس. ويتطرَّق الدِّينَوَري والطَّبري إلى يوبيانوس ويصفانه على أنَّه مؤمن نصراني، إلَّا أنَّه أخفى إيمانه خوفًا من عقاب يوليانوس. بعد ذٰلك، يصف الدِّينَوَري والطَّبري غزو يوليانوس لبلاد الفرس والظُّروف التي أدَّت لمقتله. فنعلم من هاتين الرِّوايتين، مثلما تحدِّثنا *الرُّومانسة*، أنَّ يوليانوس دخل أراضي الفرس، وهزم الجيش الفارسي، وتقدَّم بسرعة في أراضيهم. وعندما احتلَّ يوليانوس المدائن (قطسيفون) - عاصمة الفرس- لاذ سابور بالفرار. وفي الوقت الذي

37 - ينعكس تأثير "الرُّومانسة" على اليعقوبي ليس بالأحداث فحسب، بل أيضًا بطريقة استخدامه للأسماء. لمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع ينظر في Th. Nöldeke "Über den Syrischen Roman von Kaisar Julian," 263 no. 2, 268 no. 3.

38- J. G. E. Hoffmann, *Iulianus der Abtrünnige*,. 54-56. للتَّرجمة الإنجليزيَّة H. Gollancz , *Julian the Apostate*, 60-61.

39-الدِّينَوَري، *الأخبار*، 49; الطَّبري، *تأريخ*، الجزء الثَّاني، 58.

40- J. G. E. Hoffmann, *Iulianus der Abtrünnige*,. 5-7. للتَّرجمة الإنجليزيَّة H. Gollancz , *Julian the Apostate*, 10-12.

كان فيه يوليانوس فرحًا ومغرورًا بانتصاره الباهر، أصابه سهم لا يعرف مصدره وقتله. ولوصف غموض هٰذا السهم يستخدم الدِّينَوَري عبارة "سهم عاثر"، بينما يستعمل الطَّبري عبارة "سهم غرب".[41]

بالمقارنة مع المصادر الإسلاميَّة، يوفِّر لنا المصدر السِّرياني *الرُّومانسة* وصفًا مسهبًا للطَّريقة التي لقي فيها يوليانوس حتفه، وذٰلك لأنَّها تشكِّل ذِروة القصَّة من ناحية الغاية الدِّينيَّة للكنيسة. فيخبرنا المصدر السِّرياني أنَّه خلال الحرب بين الفرس والرُّوم يُسمع صوت من السَّماء ليعلن موت يوليانوس وانتهاء الحرب بين الطَّرفين. بعد ذٰلك "يرسل سهم من المكان الذي سمع منه الصَّوت ويصيب الشِّرِّير تحت صدره ويقتله".[42] فموت يوليانوس في *الرُّومانسة* يعتبر قمَّة القصَّة، لأنَّه يمثِّل العقاب الإلٰهي للـ"كافر"، الذي أصبح عدوًّا للنَّصرانيَّة، وانتصار الخير على الشَّرِّ، أي انتصار النَّصرانيَّة على الوثنيَّة.

يتمثَّل التَّشابه بين *الرُّومانسة* وروايتي الدِّينَوَري والطَّبري، أيضًا في الشَّكل الذي تنتهي فيه القصَّة. فعند مقارنة هٰذه النُّصوص نعلم أنَّ موت يوليانوس الغامض يصدم الرُّوم ويضعهم في حيرة؛ وعندها يتوجَّه وجهاء الرُّوم إلى يوبيانوس مطالبين إيَّاه بأن يصبح ملكًا عليهم، ويرفض الانصياع لطلبهم مخبرًا إيَّاهم بأنَّه نصرانيٌّ ولا يستطيع أن يملك على عبدة أوثان. وعندما يفشون له سرَّهم بأنَّهم في الواقع نصارى تظاهروا بالوثنيَّة خوفًا من بطش يوليانوس، يوافق يوبيانوس على أن يصبح ملكًا عليهم ويعود إلى بلاده بعد أن يصالح سابور ويعوِّضه عن الخسائر التي أوقعها به يوليانوس.[43]

موضوع الخطيئة والعدل الإلٰهي الذي تتمحور حوله قصَّة يوليانوس في *الرُّومانسة* ينعكس أيضًا في روايات بعض المؤرِّخين المسلمين، وخاصَّة الطَّبري. وكما نعرف فإنَّ

41 - الدِّينَوَري، *الأخبار*، 49؛ الطَّبري، *تأريخ*، الجزء الثَّاني، 58.

42 -J. G. E. Hoffmann, *Iulianus der Abtrünnige*, 185-186 H. Gollancz , للتَّرجمة الإنجليزيَّة *Julian the Apostate*, 197-198.

43 - الدِّينَوَري، *الأخبار*،50؛ الطَّبري، *تأريخ*، الجزء الثَّاني، 58-59. J. G. E. Hoffmann, *Iulianus der Abtrünnige* 197-199, H. Gollancz , *Julian the Apostate*,210-212 للتَّرجمة الإنجليزيَّة

الطَّبري كان فقيهًا ومؤسِّسًا لمذهب اندثرت آثاره.[44] وكتابته التاريخيَّة تمثِّل وجهة نظر أهل الحديث (أو المحدِّثين) بحيث يعكس المبادئ والمثل الدِّينيَّة كما وردت في القرآن والسُّنَّة النَّبويَّة؛ ومن هنا فإنَّ منهجه في التَّاريخ يستخلص العبر من قصص الأمم الأخرى عن طريق إظهار إرادة الله المتمثِّلة في موضوعي العقاب والثَّواب وانتصار الحقِّ على الباطل [45] ففي قصَّة يوليانوس نجد عدَّة أمثلة لهٰذين الموضوعين: سلوك القبائل العربيَّة المتهوِّر الذي أثار حفيظة سابور، وعدوانيَّة سابور المفرطة تجاه القبائل العربيَّة، ومهاجمة يوليانوس لسابور، واحتلال عاصمة دولته، وموت يوليانوس عقابًا له على تركه النَّصرانيَّة وإحيائه الوثنيَّة. ولعلَّ في استخدام المؤرِّخين المسلمين (الدِّينَوَري واليعقوبي والطَّبري) للفعل "ارتدَّ" إشارة إلى حروب الرِّدَّة، التي تعتبر مرحلة حرجة في التَّاريخ الإسلامي. وبهٰذا يتَّفقون مع وجهة نظر الكنيسة فيما يتعلَّق بقصَّة يوليانوس، وخاصَّة ارتداده عن النَّصرانيَّة.

إطار الرِّوايات اليونانيَّة-الرُّوميَّة

يعكس استخدام المؤرِّخين المسلمين للمصادر اليونانيَّة-الرُّوميَّة مرحلة مهمَّة في تطوُّر الفكر التَّاريخي الإسلامي، وخاصَّة فيما يتعلَّق بالاهتمام بثقافات أخرى بشكل عام، وبتاريخ الرُّوم-البيزنطيِّين بشكل خاص. ومن هنا فإنَّ تحليل انعكاس قصَّة يوليانوس في الرِّوايات الإسلاميَّة المبكِّرة يشكِّل محكًّا علميًّا نافعًا لفهم وتتبُّع تطوُّر الكتابة التَّاريخيَّة عند المسلمين؛ وهٰذا التَّوجُّه في استثمار المصادر اليونانيَّة-الروميَّة يتمثَّل مليًّا في روايتي المسعودي خاصَّة في كتاب *التَّنبيه والإشراف* والأصفهاني. فكلاهما، كما ذكرنا من قبل، يقدِّمان قصَّة يوليانوس ضمن عرضهم لتاريخ القياصرة الرُّوم-البيزنطيِّين. يتميَّز وصف

44 -*The History of al-Tabari (Ta'rikh al-rusul wa'l-muluk) General Introduction* and *From the Creation to the Flood*, trans., and annotated by Franz Rosenthal (New York: Suny Press, 1989), 64-67.

45 -B. Shoshan, *Poetics of Islamic Historiography :Deconstructing al-Tabari's History* (Leiden: Brill, 2004), 85-100; 109-114; M. Springberg-Hinsen, *Die Zeit vor dem Islam*, 32-34; B. Radtke, *Weltgeschichte und Geschichteschreibung*, 16-22.

الأصفهاني بالإيجاز، حيث يذكر ارتداد يوليانوس عن النَّصرانيَّة وغزوه لبلاد الفرس.[46] ومن هنا فإن نقاشنا لعرض قصَّة يوليانوس ضمن الإطار اليوناني-الرُّومي سيكرِّس جلُّه لرواية المسعودي. ولمركزيَّة رواية المسعودي ومساهمته في إدخال حضارات جديدة إلى حيِّز الفكر التَّاريخي عند المسلمين، لا بدَّ لنا أوَّلًا من إلقاء نظرة سريعة على خلفيَّته الثَّقافيَّة.

تعتبر مؤلَّفات المسعودي التَّاريخيَّة انعكاسًا للإنجازات العلميَّة والأدبيَّة التي شهدتها الحضارة الإسلاميَّة العبَّاسيَّة خلال القرن العاشر الميلادي نتيجة للِّقاء الثَّقافي بين المسلمين والحضارات الأخرى مثل (الفارسيَّة والهنديَّة واليونانيَّة). فمنذ نهاية القرن الثَّامن الميلادي، شرع العلماء المسلمون في عمليَّة ترجمة واسعة لأعمال علميَّة وأدبيَّة وفلسفيَّة من هذه الثَّقافات إلى العربيَّة. ووصلت الإنجازات العلميَّة والأدبيَّة الإسلاميَّة أوجها خلال القرن العاشر الميلادي.[47] وإذا نظرنا إلى الكتابة التَّاريخيَّة عند المسعودي نجدها تتمتَّع بمميِّزات خاصَّة. فالمسعودي أوَّل من دمج علمي التَّاريخ والجغرافيا في عرضه للتَّاريخ، وكذلك وفرة المعلومات التي يوفِّرها لنا عن تاريخ الشُّعوب الأخرى تجعله مميَّزًا عن المؤرِّخين المسلمين الآخرين. فكان أوَّل من ترك لنا أكثر الرِّوايات إسهابًا عن تاريخ اليونانيِّين والرُّوم.[48] بالإضافة إلى ذلك، فالمسعودي كان رحَّالة مشهورًا وزار الكثير من الأقطار الإسلاميَّة وغير الإسلامية، وكانت له مناظرات ثقافيَّة مع علماء مسلمين ويهود ومسيحيِّين ووثنيِّين.[49]

46- الأصفهاني، *تأريخ*، 74.

47- Ahmad Shboul, *Al-Mas'udi & His World: A Muslim Humanist and His Interest in Non-Muslims (*London :Ithaca press, 1979), 2-5.

48- Abed el-Rahman Tayyara, *The Reflection of Non-Islamic Cultures in Early Islamic Universal Histories* (Ph.D. Dissertation, 2005), 18-20; Tarif Khalidi, *Islamic Historiography: The Histories of Mas'udi* (Albany: SUNY University Press, 1975), 1-5; A. Shboul, *Al-Mas'udi & His World,* 1-17.

49 - المسعودي، *كتاب التَّنبية والإشراف*، المطبعة العربيَّة الجغرافيَّة (ليدن: بريل، 1894)، 114، 154-156.

وهٰذه الخلفيَّة تشير إلى أنَّ المسعودي كان مؤرِّخًا يتمتَّع بفضول كبير وانفتاح للبحث عن مصادر أخرى سعيًا في إثراء عرضه التَّاريخي بمعلومات جديدة.

يتطرَّق المسعودي إلى قصَّة يوليانوس في كتابيه: *مروج الذَّهب والتَّنبيه والإشراف*. ومن مقارنة روايته في هٰذين الكتابين، نجد أنَّه في عرضه لرواية يوليانوس يزوِّدنا بمعلومات جديدة، حيث يبرز فيها، كما سنرى في السُّطور القادمة، استخدام مصادر جديدة، خاصَّة اليونانيَّة منها. ومن هنا فإن تحليل التَّقديم التَّاريخي عند المسعودي لهٰذه القصَّة يوفِّر لنا مثالًا جيِّدًا لعمليَّة انتقال المعرفة التَّاريخيَّة من الثَّقافات الأخرى إلى الفكر التَّاريخي الإسلامي. ولنقف على تطوُّر الكتابة التَّاريخيَّة عند المسعودي، نبدأ بتمحيص عرضه لقصَّة يوليانوس في *مروج الذَّهب*، الذي تمَّ تأليفه قبل *التَّنبيه*.

ففي الـ*مروج* يخبرنا المسعودي، كما ورد في روايات اليعقوبي، الدِّينَوَري، والطَّبري، عن تظاهر يوليانوس بالنَّصرانيَّة قبل وصوله إلى الحكم، إلَّا أنَّه اتَّبع الوثنيَّة وسرعان ما أصبح ملكًا على الرُّوم. وكذٰلك يروي لنا غزو يوليانوس لبلاد فارس، وموته الغامض هناك، وتولِّي يوبيانوس المؤمن بالنَّصرانيَّة الحكم من بعده. ونرى أنَّ رواية المسعودي متأثِّرة هنا، مثل المؤرِّخين المسلمين الآخرين، بالمصدر السِّرياني، *الرُّومانسة*، لقصَّة يوليانوس. بيد أنَّه كان أوَّل من استخدم مصادر يونانيَّة في روايته. ويستدلُّ ذٰلك من استعماله لكلمة "البزتاط" (apostatis) اليونانيَّة، مشيرًا إلى أن النَّصارى أطلقوا على يوليانوس هٰذا الاسم البغيض، الذي يعني الكافر، لأنَّه ارتدَّ عن النَّصرانيَّة واتَّبع الوثنيَّة.[50]

مع انتقالنا لتمحيص عرض المسعودي لقصَّة يوليانوس في *التَّنبيه* نجد معلومات جديدة عن طبيعة ديانته الوثنيَّة لا نجدها في الرِّوايات الإسلاميَّة المذكورة أعلاه. وهٰذا يدلُّ على استخدام المسعودي لمصادر جديدة واتِّباعه تنظيمًا آخر للبنية السَّرديَّة للقصَّة. وللوقوف جيِّدًا على هٰذه الفروقات، لا بدَّ لنا من التَّعرُّف على النَّصِّ الكامل لروايته حيث يخبرنا: "يوليانوس، مَلَكَ سنتين وكان يخفي الصَّابئيَّة في أيَّام عمِّه وابن عمِّه فلمَّا ملك

50 - المسعودي، *مروج*، الجزء الثَّاني، 48-47 (الفقرات 745-744).

أظهرها وارتدَّ عن دين النَّصرانيَّة وخرَّب الكنائس وردَّ التَّماثيل التي جعلها الصَّابئون مثلًا للجواهر العُلويَّة والأجسام السَّماويَّة التي هي وسائط بين العلَّة الأولى عندهم وبين الخليقة في العبادات. وقتل من النَّصارى خلقًا كثيرًا، وجعل عقوبة من لم يرتدَّ إلى الحنيفيَّة القتل، وكان يأخذ من عاد إلى الحنيفيَّة بإلقاء اللِّبان على النَّار والأكل من ذبيحة الحنفاء وغير ذٰلك. وكان عظيم السَّطوة كثير الجنود، وسار إلى أرض العراق في ملك سابور بن أردشير فهلك بسهم غرب أصابه، والرُّوم تسميه بأربديس، وتفسير ذٰلك المرتدّ والصَّابئة أوسبيوس، تفسير ذٰلك المؤمن التَّقي. والنَّصارى جميعًا يتبرَّأون منه، ومنهم من يدعوه البزتاط".[51]

في هٰذا النَّصِّ يركِّز المسعودي على طبيعة دين يوليانوس الوثني، ويوفِّر لنا معلومات جديدة لم نعهدها في المصادر الإسلاميّة المذكورة آنفًا. ومع ذٰلك، نرى بعض الأحداث في روايته قد تأثَّرت بـ *الرومانسة*. فاستعماله لكلمة "الحنيفيَّة"، والتي تعني بالسريانيَّة الوثنيَّة،[52] تشير إلى اعتماده على مصدر سرياني. سنكرِّس نقاشنا هنا لتمحيص المعلومات الجديدة المذكورة عند المسعودي، محاولين تتبُّع مصادره والتَّعرُّف عليها. فبذكره أنَّ يوليانوس أعاد عبادة الأوثان التي يرى بها الصَّابئة رموزًا للأجسام السَّماويَّة، يرى المسعودي رجوع يوليانوس للوثنيَّة على أنَّه إحياء للفلسفة اليونانيّة، وخاصَّة الفلسفة الأفلاطونيَّة الجديدة. ويظهر ذٰلك جليًّا في ذكره للصَّابئين، الذين كانوا مجموعة وثنيَّة استمرَّت تعيش في ظلِّ الإسلام. ونعرف أنَّ الصَّابئين اتَّبعوا الفلسفة اليونانيَّة مع التَّركيز

51 - المسعودي، *التَّنبية*، 145-146.

52- لا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ كلمة "حنيف" قد وردت في القرآن الكريم لتعني الدِّيانة التَّوحيديَّة الحقيَّقية المقرونة بإبراهيم الخليل. ولٰكن كلمة "الحنيفيَّة" هنا هي سريانيَّة الأصل (حنفا) استعملها بعض الكتَّاب المسيّحيين بمعنى الوثنيَّة. وقد أخذ بعض الكتَّاب المسلمين هٰذا المعنى عن المصادر السِّريانيَّة.

W. Montgomery, Watt, "Hanif," *EI,* III (1971), 16; N.A. Faris and H.W. Gildden, "The Meaning of the Koranic Hanif ," *Journal of the Palestine Oriental Society,* 19 (1939), 6-9; J. Horovitz, *Koranische Untersuchungen* (Berlin and Leipzig: Walter de Gruyter, 1926), 56-61.

على الفلسفة الأفلاطونيَّة الجديدة.[53] وفي الـ *مروج* يخبرنا المسعودي أنَّه زار بعض علماء الصَّابئة وكانت له مناظرات ثقافيَّة معهم.[54]

هٰذا الرَّبط بين وثنيَّة يوليانوس والفلسفة اليونانيَّة لا ينحصر في المسعودي، بل نجده عند مؤرِّخين جاءوا بعد المسعودي، مثل أبي الفرج -محمد بن إسحاق المعروف بابن النَّديم (ت 970) ومسكويه (ت 1030).[55]

بالإضافة إلى ذٰلك يخبرنا المسعودي في *التَّنبيه*، كما مرَّ معنا، بأنَّ يوليانوس بعد تسلُّمه الحكم شرع في ملاحقة النَّصارى وإجبار الكثيرين منهم على الرُّجوع إلى الوثنيَّة، وصار يضع إخلاصهم للوثنيَّة في امتحان عن طريق إجبارهم على المشاركة في تقديم القرابين للآلهة وأكل طعام الوثنيِّين. ومن هنا أطلق عليه المسيحيُّون اسم "باربديس"، وهي كلمة يونانيَّة (*Παραβάτης=parabatis*) تعني المرتدّ عن دينه. فاستخدام هٰذه الكلمة يشير إلى اعتماد المسعودي على مصادر يونانيّة نصرانيَّة. ويظهر من هٰذا النَّصِّ أيضًا أنَّ المسعودي كان من أوائل المؤرِّخين المسلمين الذين استخدموا روايات وثنيَّة. ويستدلُّ ذٰلك من عبارة "والصَّابئة [تسميه] أوسبيوس، تفسير ذٰلك المؤمن التَّقي." وكلمة أوسيبيوس (*Εὐσεβής=eusebius*) هي كلمة يونانيَّة الأصل وتظهر اعتماده على مصدر يوناني وثني. والسُّؤال الذي يطرح هنا، ما هي هٰذه المصادر التي استخدمها المسعودي؟ وهل وصلته بطريقة مباشرة أو عن طريق مصادر أخرى، مثل الكتابات الكنسيَّة العربيَّة أو السِّريانيَّة.

لعبت المصادر السِّريانيَّة والعربيَّة النَّصرانيَّة كحلقة وصل هامَّة في عمليَّة انتقال العلوم والفلسفة اليونانيَّة إلى الثَّقافة الإسلاميَّة.[56] وكذٰلك المعلومات الأولى التي وصلت إلى

53- Charles Genequand, " Idolâtrie, astrolâtrie et Sabéisme," *Studia Islamica*, 89 (1999), 122-124.

54 - المسعودي، *مروج*، الجزء الثَّاني، 308-309 (الفقرة، 1234).

55 - ابن النَّديم، *الفِهْرِسْت*، تحقيق يوسف طويل (بيروت: دار الكتاب العربي، 1996)، 241; مسكويه، *تجارب الأمم*، الجزء الأوَّل، 74.

المؤرِّخين المسلمين عن التَّاريخ الرُّوماني-البيزنطي جاءت عن طريق هٰذه المصادر. وهٰذه المعلومة الهامَّة تساعدنا على تتبُّع المصادر التي أثَّرت على العرض التَّاريخي لقصَّة يوليانوس في كلٍّ من الـ *مروج* و*التَّنبيه*. ولذٰلك ينبغي علينا تمحيص العرض العام لقصَّة يوليانوس في المصادر السِّريانيَّة والعربيَّة النَّصرانيَّة (وخاصَّة كيفيَّة وصفها بالوثنيَّة) لنقف على مدى تأثُّر المسعودي بالكتابات اليونانيَّة.

تمثِّل المصادر السِّريانيَّة، التي تعرض الأحداث وفقًا لتسلسلها الزَّمني، وجهة نظر الكنيسة التَّاريخيَّة، وخاصَّة التَّركيز على رواية انتصار النَّصرانيَّة على الوثنيَّة.[57] فمن الطَّبيعي أن تحتلَّ رواية يوليانوس مكانًا هامًّا في معظم هٰذه الكتابات. وعند ذكرهم لقصَّة يوليانوس، يركِّز المؤرِّخون السِّريان، مثلما رأينا في *الرُّومانسة*، على تركه النَّصرانيَّة وإحيائه الوثنيَّة. ومن هنا فالمصادر السِّريانيَّة تطلق، كباقي الكتابات الكنسية، على يوليانوس لقب "الكافر": فالمؤرِّخون السِّريان يستخدمون كلمة "رشيعا" (الكافر) عند ذكرهم ليوليانوس، ولا تظهر عندهم مفردات يونانيَّة مقابلة، مثلما رأينا آنفًا في رواية المسعودي في *التَّنبيه*.[58]

مع انتقالنا إلى الكتابات العربيَّة النَّصرانيَّة التي تعالج قصَّة يوليانوس، نقف عند مُؤَلِّفَيْنِ أثَّرا كثيرًا على الكتابة التَّاريخيَّة عند المسعودي، خاصَّة بما يتعلَّق بالتَّاريخ الرُّوماني-البيزنطي. الأوَّل هو أغابيوس، المعروف باسمه العربي محبوب ابن قسطنطين المنْبِجي (ت 910). أمَّا الثَّاني فهو أوتيخيوس، المعروف باسم سعيد ابن البطريق (ت

56- F. Rosenthal, *The Classical Heritage in Islam,* translated from the German by E. and J. Marmorstein (Berkeley, 1975), 15-23.

57- P. Van Deun, "The Church Historians after Eusebius," in *Greek and Roman Historiography in Late Antiquity, Fourth to Sixth Century A.D*. G. Marrasco (Leiden and Boston: Brill, 2003), 151-176.

58 -J. Hoffmann, *Iulianus der Abtrünnige,* 185-86; *Chronicon ad Annum 724*, Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium, *3. Scriptores Syri, 3, Chronica Minora,* II, pp. 105; *Eliae Metropolitae Nisibi Opus Chronologicum, I,* Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium, *63, Scriptores Syri,* 23, 24.

923).[59] وهٰذان المؤرِّخان يتبعان في عرضهما التَّاريخي لقصَّة يوليانوس الأجندة الكنسية، بحيث يركِّزان على انتصار النَّصرانيَّة المؤيَّدة بالعناية الإلٰهيَّة. ويتطرَّقان إلى مطاردة يوليانوس للنَّصارى وإجبارهم على الاشتراك في الطقوس الدِّينيَّة الوثنيَّة. بينما يصف أغابيوس يوليانوس بـ"المنافق"،[60] ويستخدم أوتيخيوس كلمة "الكافر" لتركه النَّصرانيَّة واتِّباعه الوثنيَّة.[61] من هٰذه المقارنات بين المسعودي والمصادر السِّريانيَّة والعربيَّة النَّصرانيَّة نستدلُّ أنَّه، على الرَّغم من تأثُّره منها، إلَّا أنه اعتمد على مصادر أخرى. وهٰذا ينقلنا إلى تتبُّع إمكانيَّة تأثير كتابات التَّاريخ اليونانيَّة على تقديم قصَّة يوليانوس عند المسعودي.[62]

نظرًا لأهميَّة قصَّة يوليانوس في سياق الصِّراع بين النَّصرانيَّة والوثنيَّة، تعرض المصادر البيزنطيَّة اليونانيَّة، وخاصَّة التَّواريخ الكنسيَّة منها،[63] قصَّة يوليانوس على أنَّها تمثِّل

59 - يذكر المسعودي الكتابات التَّاريخيَّة لهٰذين المؤرِّخين ويثني عليها على أنها مصادر جيدة للتَّاريخ الرُّوماني. *التنبيه*، 155-156.

60 - أغابيوس، *كتاب العنوان*، تحقيق لويس شيخو (بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيِّين، 1970)، 197-198.

61 - أوتيخيوس، *كتاب التَّاريخ المجموع على التَّحقيق والتَّصديق*، في *Corpus Scriptorum Christianorum Oriantalium, Scriptores Arabici Textus*, Series Tertia, Tomus VI (بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيِّين, 1905) .137

62 - على ما يبدو أن المسعودي لم يعرف اللُّغة اليونانيَّة وإنما انكشافه للمصادر اليونانية كان عن طريق ترجمات عربيَّة أو إخباريِّين نصارى. فمثلًا، يخبرنا المسعودي في *مروج الذَّهب* عن كتاب يوناني عن تاريخ القياصرة الرُّوم وجده في كنيسة في مدينة أنطاكية. ويضيف المسعودي أنه طلب مساعدة أحد رجال الدِّين هناك ليساعده على فهم فحوى هٰذا الكتاب. *مروج*، الجزء الثَّاني، 308-309 (الفقرة 1234).

63 - يسمَّى هٰذا النوع من الكتابة "التَّاريخ الكنسي" (Historia Ecclesiastica) الذي يسرد الأحداث حسب التَّسلسل الزَّمني، وهٰذه الكتابات التَّاريخيَّة ذات نزعة دينيَّة تمثِّل وجهة نظر الكنيسة. ويعتبر أوسيبيوس المؤسِّس لهٰذا النَّوع من الكتابة التَّاريخيَّة. لمزيد من المعلومات يمكن النَّظر في H. Leppin, "The Church Historians (I): Socrates, (I): Socrates, Sozomenus, and Theodoretus," in

انتصار النَّصرانيَّة ونهاية الوثنيَّة. ففي *التَّاريخ الكنسي* للمؤرِّخ البيزنطي سوزيمينوس (ت. 450) نجد وصفًا مسهبًا لفترة حكم يوليانوس. فهو يذكر كيفيَّة وصول يوليانوس إلى الحكم، واتِّباعه الدِّيانة الوثنيَّة، وإجبار رعيَّته على ترك النَّصرانِيَّة وعبادة الوثنيَّة. ويضيف سوزيمينوس أنَّ يوليانوس شرع في ملاحقة النَّصارى ومضايقتهم بأشكال مختلفة، مثل تدنيس مآكلهم ومشاربهم.[64] ونلاحظ هنا التَّشابه الكبير بين وصف سوزيمينوس ورواية المسعودي، كما مرَّ معنا، في *التَّنبيه*. بالإضافة إلى ذٰلك، يذكر سوزيمينوس فيلسوفًا وثنيًّا من مدينة إفسوس اسمه مكسيموس. ويلعب هٰذا الفيلسوف، حسب رواية سوزيمينوس، دورًا محوريًّا في تعليم يوليانوس مبادئ الفلسفة اليونانيَّة، وتصميم فكره الوثني، وكراهيته للنَّصرانيَّة. [65] فالمسعودي يقرن، كما رأينا في *التَّنبيه*، إحياء يوليانوس للوثنيَّة بالفلسفة اليونانيَّة المتمثِّلة بالفكر الدِّيني عند الصَّابئة. وهٰذا التَّشابه يُظهر اعتماد المسعودي على مصادر يونانيَّة في تقديمه لقصَّة يوليانوس. وكذٰلك فإنَّ ظهور مفردات يونانيَّة، مثل، parabatis .apostatis.eusebius (*Ἐυσεβής αποστατής Παραβάτης*)، في نصِّ المسعودي يُرَجِّح اعتماده على مصادر يونانيَّة. فمثلًا، المؤرِّخ البيزنطي ملالاس (ت. 570) يستخدم في عرضه لقصَّة يوليانوس كلمة parabatis عندما يصف يوليانوس بـ "الكافر[66]"، بينما نجد كلمة apostatis مستخدمة في التَّاريخ العالمي البيزنطي المعروف باسم (Chronicon) Paschale.[67] ومن هنا فإنَّ العرض التَّاريخي الذي يوفِّره لنا المسعودي لقصَّة يوليانوس في

Greek and Roman Historiography in Late Antiquity, Fourth to Sixth Century A.D. ed. G. Marrasco (Leiden and Boston, 2003), 219-245.

64- Sozomen, *Historia Ecclesiastica*, v,1 -3; see also Philostorgius, *Historia Ecclesiastica*, vi, 7, vii, 1-9.

65- Sozomen, *Historia Ecclesiastica*, v, 2, 16.

66- *Ioannis Malalae Chronographia*, ed. I. Thurn in *Corpus Fontium Historiae Byzantinae*, 35: Ser. Berolinensis (Berlin: Walter de Gruyter, 2000), 250 (13: 18).

67- *Chronicon Paschale.* (Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae), ed. G. Dindorf. Bonn: E. Weber, 1832), p. 92; Sozomen, *Historia Ecclesiastica*, v, 4, 8.

مروج الذَّهب و*التَّنبية* يعكس المراحل المختلفة التي مرَّت بها هٰذه القصَّة في الرِّوايات الإسلاميَّة من حيث المصادر الجديدة، والبنية السَّرديَّة، والاهتمام بتاريخ الأمم الأخرى.

خلاصة البحث

تمحورت الكتابة التَّاريخيَّة الإسلاميَّة منذ نشأتها حول حياة الرسول،ﷺ، والصَّحابة، وحفظ التُّراث العربي الجاهلي. وكلَّما تقدَّمنا زمنيًّا طفت على الحياة الثَّقافيَّة الإسلاميَّة مواضيع جديدة، وجدت لها صدًى في الكتابة التَّاريخيَّة. وقد أدَّى اللِّقاء الحضاري بين المسلمين والشُّعوب الأخرى إلى إثراء الحياة الثَّقافية الإسلاميَّة وفتح آفاق جديدة في الكتابة التَّاريخيَّة. ولقد لعبت الحضارة الفارسيَّة دورًا بارزًا في تطوير الفكر التَّاريخي عند المسلمين، لا سيَّما وأنَّ العلماء المسلمين من أصل فارسي لعبوا دورًا محوريًّا في عمليَّة نقل التُّراث الحضاري الفارسي العلمي والأدبي إلى اللُّغة العربيَّة.

وفَّرت هٰذه الدراسة لنا زاوية جديدة لفهم تطوُّر الكتابة التَّاريخيَّة عند المسلمين، وخاصَّة بما يتعلَّق باهتمامهم بتاريخ الشُّعوب الأخرى، وذٰلك من خلال قراءة مسهبة في العرض التَّاريخي لقصَّة يوليانوس في المصادر والحوليَّات الإسلاميَّة الكلاسيكيَّة.

ومن هنا تتبُّع هٰذه الدِّراسة المراحل المبكِّرة لظهور قصَّة القيصر يوليانوس في الكتابات التَّاريخيَّة الإسلاميَّة عن طريق تمحيص التِّقنيَّات السَّرديَّة، والأساليب، ودمج المصادر . ونستنتج من القراءة المقارنة لٰذه الرِّوايات أنَّ انتقال المعلومات عن قصَّة يوليانوس إلى المؤرِّخين المسلمين كان تدريجيًّا ومرَّ بمراحل سرديَّة مختلفة، حيث لعب إطارُ التَّاريخ الفارسي دورًا هامًّا في نقلها.

ومراحل العرض التَّاريخي لقصة يوليانوس هي بمثابة أطر سرديَّة يتمُّ خلالها التَّعرُّف على كيفيَّة تفاعل المؤرِّخين المسلمين مع هٰذه الرِّواية من ناحية الموضوعات والأحداث، وتتبُّع مدى تأثُّرهم بمصادر غير عربيَّة. وقد لاحظنا في هٰذه الدِّراسة الدَّور الكبير الذي يلعبه تاريخ ملوك الفرس (خاصَّة فترة حكم سابور الثَّاني) كإطار سرديٍّ يتمُّ فيه تمحيص الرِّوايات الإسلاميَّة، من حيث المعلومات والأساليب المتَّبعة لدمج قصَّة يوليانوس. وحتَّى أنه يمكن

ترجيح الاحتمال بأنَّ معظم المؤرِّخين المسلمين قد تعرَّفوا على المصدر السِّرياني المسمَّى *رومانسة يوليانوس*، الذي أثَّر كثيرًا على الرِّوايات الإسلاميَّة، من خلال الإطار الفارسي. ولٰكنَّ فضول المؤرِّخين المسلمين لمعرفة المزيد عن رواية يوليانوس، دفع ببعضهم إلى البحث عن مصادر جديدة تابعة لأطر سرديَّة أخرى. وخير مثال على التَّوجُّه هو العرض التَّاريخي للقصَّة عند المسعودي الذي يظهر معرفة ملفتة للنَّظر بتاريخ الرُّوم-البيزنطيِّين ويدمج في تقديمه للقصَّة مصادر جديدة (نصرانيَّة وحتَّى وثنيَّة) لم نرها عند المؤرِّخين الذين سبقوه.

إلى جانب ذٰلك، يلقي هٰذا البحث بعض الضَّوء على دوافع اهتمام المؤرِّخين المسلمين بقصَّة يوليانوس ودمجها في تقديماتهم التَّاريخية. تظهر في روايتي ابن قتيبة و الطَّبري، على سبيل المثال، وجهة النَّظر الدِّينيَّة، التي تتماشى إلى حدٍّ بعيد مع الخطاب التَّاريخي الكنسي. ولا نستبعد أنَّ اهتمام المؤرِّخين المسلمين بقصَّة يوليانوس، وخاصَّة ارتداده عن النَّصرانيَّة، مرجعه حروب الرِّدَّة، التي كانت مرحلة مصيريَّة في التَّاريخ الإسلامي. وفي روايتي الدِّينَوَري والأصفهاني نرى التَّفاعل مع الخطاب الشُّعوبي، لٰكن كلٌّ منهما عالج الخطاب الشُّعوبي بشكل مغاير. أمَّا عرض رواية يوليانوس عند المسعودي، فيظهر فيها سعيه في البحث عن مصادر جديدة ضمن إطار التَّاريخ الرُّومي-البيزنطي، وتمتُّعه بانفتاح ثقافي وحبِّ استطلاعٍ كبيرين.